الجهر بالحق (1)

الأخ نبيل شبيب

المسلم الحق لا ينطق إلاّ حقّا .. فما بالنا نجد الذين يُجاهرون بباطلهم –حتى باسم الإسلام نفسه– أضعاف مـــن يجهرون بالحق ، في كل ميدان ومكان ؟

المسلم الحق لا يخشى في الله لومة لائم .. فما بالنا نجد الخوف آخذاً بكثيرٍ من النواصي فتخضع لكل طاغوتٍ من دون الله ، وبكثيرٍ من الأقدام فتتبع الأهواء والمصالح على كل طريقٍ غير الصراط المستقيم ؟

المسلم الحق يربّيه إسلامه على البصيرة النافذة ، والحكمة البالغة ، والجرأة المغيِّرة ، والقوة المانعة ، والحجة الدامغة .. فما بالنا نرى القليل من النماذج لهذا المسلم ، ونرى الكثير من النماذج للإمّعة عن معرفةٍ أو جهل ، والمتهوّر عـــن إخلاصٍ أو طيش ، والمتردّد عن هوىً أو جبن ، والمستضعَف في فكره ووجوده .. الصامت حيـــث يفـــرض عليـــه الصمت إكراهاً ، أو حتى حيث لا يُستكْرَه على الصمت أصلا ؟

هل الإسلام والمسلمون بخير .. فلا حاجة بنا إلى الجهر بالحق كما ينبغي ، في الدعوة إلى الخير والأمر بـــالمعروف والنهي عن المنكر .. في كل حالٍ ومقام ، أم أنّ من شرّ ما ابتلي به المسلمون في حاضرهم الحافل بالأرزاء هو هـــذا الإحجام عن أداء واجب التغيير بكلمة الحق على الأقل ، ودعنا من واجب التغيير الأكبر باليد على كل من يستطيع ؟

إنّ الصدور .. صدور كثيرٍ من المسلمين المخلصين حافلةٌ بهذه الأسئلة وأمثالها ، نلقيها على بعضنا بعضاً في كثيرٍ من المناسبات ، ولكن غالباً ما نقتصر في الحديث عنها في إطار جلساتٍ أو اجتماعات تضم المسلمين العاملين لدينهم ، وغالباً ما نطمئن أنفسنا ونطمئن الصدور المتسائلة بالإشارة –التي تتضمّن المبالغة دائماً– إلى بعض المجالات الصغيرة التي يُجْهَر فيها بالحق ، دون أن يغيّر ذلك الكثير من جذور هذا الواقع الفاسد في حياة المسلمين .. وربما حلّق بعضنا بنفسه في أجواء ساميةٍ عالية ، مع قصص الرعيل الأول ومن سار على دربه من بعده ، وكأن قصصهم مخـــدّرٌ لنـــا ، يمنعنا من تحديد مقاييس الجهر بالحق لأنفسنا ، للالتزام بها وممارسة الواجب الملقى على عاتقنا نحن بالذات ، في هـــذا العصر بالذات .. جهراً بالحق ، ودعوةً لعامّة المسلمين أن يجهروا به كما ينبغي

الأسئلة كثيرة ، ومعظمها صادرٌ عن شعورٍ بالمرارة إزاء الواقع الراهن ، والأجوبة في غالب الأحيان جاهزة ، غير أنها إما أن تصدر عن حماسٍ متدفقٍ وتقف عند حدوده لا تتجاوزها إلى واقع الحياة ، أو أن تتضمن أعـــذاراً قاتلـــةً

للحماس ، موهنةً للعزيمة ، مبعدةً للسائل والمسؤول عن أصل القضية ، وربما انحرفت بهما انحرافاً كبيراً وخطيراً عـــن غاية الإسلام العظيم في تحديد واجب الجهر بالحق والتأكيد عليه

وكثيراً ما نجد من يحمِّل مسؤولية افتقاد الكلمة الصائبة المغيّرة لكل الناس .. إلاّ نفسه ، فهذا يقـــول إنّ الجهـــر بالحق واجب العلماء والعلماءُ مقصرون ، وذاك يقول إنّ تقصيرهم ناتجٌ عن أنهم لا يجدون من عامة المـــسلمين مـــا يكفي من النصر والتأييد .. هذا يقول دعِ الجهر بالحق حتى تستيقن النصر في هذه الحياة الدنيا ، وذاك يقول اجهـــر بكلمة الحق في كل ميدانٍ ومكانٍ إلاّ في مقام الحكم ، وكأنه المقام الوحيد المحرّم قولُ الحق فيه ..

ولكن .. أين في هذا كله ميزة التعامل مع الله أولاً ، والتي يحققها فينا -إذا صحّ وصدق- إيماننا بالله ؟ ..

وأين ميزة التوازن والاعتدال التي نعرفها عن إسلامنا ، وهو الدين الشامل لكل مجالٍ من المجالات ؟ ..

إنّ الموقف الحق في هذه القضية لَيتبيّن بالبحث العلمي والنظر الموضوعيّ الإسلاميْن ، وبالخبرة العملية في ميـــدان الدعوة .. وإن الكثير من الشباب المسلم المقبل على دعوته بإخلاصٍ لَيحتاج إلى بيان معالم واجب الجهر بـــالحق في صورةٍ محددة ، وبيان المقاييس والمعايير الإسلاميّة اللازمة لممارسة الواجب في صورةٍ واضحة .. حتى نضبط أنفـــسنا وأقوالنا وتقويمنا لكثيرٍ من المواقف والجهات والأوضاع ، وحتى نرجع إلى ذلك كله في تعاملنا مع بعضنا وتعاملنا مع كافة الناس

وهذا البحث الموجز محاولةٌ لاستخلاص تلك المعالم والمقاييس والمعايير من القرآن والسنة ، يـــسترشد للإيـــضاح والتفصيل بمواقف من كانوا موضع الثقة العامّة بعلمهم وإخلاصهم وموضع الاطمئنان العام لسلوكهم وأعمـــالهم .. ولا يزالون ، ممن يحدّثنا التاريخ عنهم ، أو ممن نعاصر نماذجَ لهم في تاريخ أمتنا الحديث

وليس هدف البحث الوصول إلى (نتيجةٍ علمية) فحسب ، بل يريد في نفس الوقت إحياء قضية الجهر بـــالحق في فكرنا كمسلمين .. فمن رأى في ذلك رأياً غير الذي تورده الفقرات التالية ، فما أحبّ كاتبها من سماع ذلك والأخذ بالحق فيه

كما أن الهدف الأكبر من البحث هو إحياء قضية الجهر بالحق في واقع المسلمين العاملين وواقع ممارسة دعوتهم إلى الله في كل ميدانٍ ومكان ، فبيان هذه القضية كما يراها الإسلام يفرض أول ما يفرض الأخذَ بما يتوفر عليه الـــدليل وممارستَه في واقعنا كجزءٍ من المسلمين .. بعلمائهم وعامّتهم وحكامهم ، ومنارُنا في ذلك اليقين بأنه لا بد من تغيير الواقع الفاسد من الجذور ، وإقامة الحياة الإسلاميّة والحكم الإسلاميّ ، وبأنه لا يتحقق هذا التغيير الجذري الـــشامل من تلقاء نفسه ، بل بالإقدام عليه أفراداً وجماعة ، بالنوايا والأقوال والأفعال .. راجين في ذلك ثواب الله ومرضاته ،

وناظرين فيه نظرة الرغبة أن يعين بعضنا بعضاً على الجهر بالحق كما أمر الله عزَّ وجلَّ ، للغاية التي ترضيه وتحقق الخير لنا وللمسلمين في الدنيا والآخرة إن شاء الله

ويرتبط الجانب الأهم في بيان قضية الجهر بالحق بقضية قيام الحياة الإسلاميّة والحكم الإسلاميّ .. ولهـــذا يـــأتي التركيز على ذلك في الفصل الأول من البحث ، كما يطرح الجانب العملي للقضية السؤال عن دور العلمـــاء ودور العامة ، وهذا هو موضوع الفصل الثاني ، ثم نطرح في الفصل الثالث السؤال : لماذا لا نجهر بالحق دائماً ؟ .. راجين أن يعيننا الجواب على ذلك في إجابة السؤال المطروح في الفصل الرابع : كيف نجهر بالحق ومتى ؟ .. ثم يكون -بعون الله استخلاص النتائج وصياغتها في الفصل الخامس والأخير تحت عنوان : مقاييس ومعايير .

الفصل الأول

الجهر بالحق وقضية الحكم

واجب الجهر بالحق واجبٌ شاملٌ في الأصل لكافة الجوانب التي تشملها الدعوة إلى الخير ، بعد أن ضُيِّع المعروف إلاّ قليلاً ، وشاع المنكر شيوعاً كبيرا .. وفي مقدمة تلك الجوانب القضايا الجليلة ، فكلما عظم شأن الأمـــر الـــذي يحتاج إلى بيان ، عظمت مسؤولية التبيين وعدم الكتمان .. فكيف هو الحال مع الأمر الذي يقول الله تعالى فيه :

﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾[1]

ويقول رسول الله ﷺ مبيّناً أصل الصلاح وأصل الفساد ، وبالتالي مبيّناً أين ينبغي العمل على إزالة الفـــساد مـــن جذوره :

« **صِنْفَانِ مِنَ النَّاسِ إِذَا صَلُحَا صَلَحَ النّاسُ ، وإِذا فَسَدَا فَسَدَ النّاسُ : الْعُلَمَاءُ والأُمَرَاء** »[2]

أليس في الجمع بين هذين الصنفين في الحديث بيان أنه إن لم يصل الفساد إلى أحدهما ، لم يصل الفساد إلى الناس بسببهما ؟ .. وأنه إذا أزيل الفساد ، أي صلح الصنفان ، بدأ الطريق إلى إزالة مجموع الفساد المنتشر بين الناس فصلح الناس ؟

ولكن هل يعني هذا أن قضية الجهر بالحق ينبغي أن تنحصر في هذين المجالين ؟ ..

ينظر كثيرون اليوم في قول الله عزَّ وجلّ :

﴿ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** ... ﴾[3]

فيقولون : ذلك واجبٌ لا يمكن أداؤه إلاّ اعتماداً على قوة السلطان المسلم **ف** (الأمر والنهي) يتطلبان أن يتولاهمـــا السلطان بسلطته ..

ولكن .. طالما أن رسول الله ﷺ يؤكّد في حديثه احتمال فساد الأمراء والعلماء معا .. ألا يتوجب علينا التساؤل:

– إذا ظلم الحكام أنفسَهم والناس بالجور ، وظلم العلماء أيضاً أنفسهم والحكام والناس بالسكوت .. أو بالتبعية للظلم ، ألا يأثم آنذاك جميع المسلمين بعلمائهم وحكامهم وعامّتهم .. في حالة عدم قيام أحد بأداء هـــذا الواجـــب (الكفائي) العظيم ، سواءٌ من العلماء أو العامة ؟

– كيف يقوم حكم الإسلام المفقود –على فرض صحة تعليق أداء هذا الواجب بوجوده– إذا انعدم العمل علـــى الجهر بالحق في وجه الحكم غير الإسلاميّ القائم ، بغض النظر عن واجب التغيير العملي أيضا ؟

– وسؤالٌ ثالث : أليس العمل على التغيير بالقول أو الفعل أو كليهما معاً ، هو بالذات الواجب المفروض الآن ، باعتباره الواجب الذي لا يتم واجب وجود الحكم الإسلاميّ إلاّ به ؟ ..

بلى .. لا سيّما إذا قبلنا بالافتراض النظري أن (الأمر والنهي) معلقان بوجود ذلك الحكم .. ولا نقبل بذلك

ونستطرد قليلاً مع الواقع الراهن :

– أليس من المغالطات الرهيبة التي ننساق أو نُساق إليها في هذا المجال ، الاعتقادُ بسقوط واجب الجهر بـــالحق – كفائياً كان أم عيناً– لمجرد الكلام عن بعض المنكرات دون أكبرُها ، وأكبرُها الحكم بغير ما أنزل الله في بلد لا يشرك أهله بالله .. أو لمجرد الحث على بعض المعروف دون أجلّ صوره وأجمعِها للمعروف ، وهي إقرار كلمـــة الله حيـــاةً وحكماً في الأرض والخلق ؟ .

وقد يتساءل متسائل : ألا يكفي الإنكار في القلب ؟

والسائل يستشهد –غالباً– بقول رسول الله ﷺ :

« **مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَان** » وفي رواية « **وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ** »[4]

ولا نسأل المتسائل : أرضيتَ يا أخي المؤمن بأضعف الإيمان ؟

ولا نسأله أيضاً : (الفاء) المتكررة في الحديث استئنافية ، تحدد درجة التغيير المأمور به بعد الدرجة .. فهل عجزت

فعلاً عن التغيير باليد ، ثم بالقول ، حتى وصلت إلى الاكتفاء بمجرد الإنكار في القلب ؟

ولا نخوض في الحديث عن حدّ (الاستطاعة) ومسألة (الاستكراه) .. بل نورد نوعاً من (المنكر) لا يكفي فيه مجرد الإنكار في القلب ، من حديث رسول الله ﷺ :

« **من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يغيّر بقولٍ ولا فعل ، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله** »[5]

أي مدخله من النار .. والعياذ بالله ، فأين في الحديث ذكر إمكانية الاكتفاء بالإنكار في القلب في هذه الحالة ؟ .. أليس يذكر الحديث الأول (المنكر) بصفةٍ عامة ، ويخصّص هذا الحديث نوعاً محدداً من المنكـــر ويخـــصّص بالتـــالي (الطريقة المفروضة) للتغيير ؟ ..

أما المسألة من يغيّر ، وكيف ومتى ، فنتركها لفقراتٍ تالية إن شاء الله ..

على أننا نجد في عصرنا ما هو أبعد من قضية (الإنكار في القلب) كمبرّرٍ لعدم العمل على التغيير بالقول أو الفعل .. إننا نعاصر قضية (التبعية للظالمين قولاً وفعلا) .. والتي يقول فيها رسول الله ﷺ :

« **سَيَكُونُ أُمَرَاءُ فَسَقَةٌ جَوَرَةٌ ، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ ، وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الْحَوْض** »[6]

أي لن تناله الشفاعة على الحوض عندما تذل الأبصار والقلوب ويظهر شريط الأعمال مع النوايا يوم الساعة

ويقول رسول الله ﷺ :

« **مَنْ أَعَانَ ظَالِماً بِبَاطِلٍ لِيَدْحَضَ بِهِ حَقاً فَقَدْ بَرِئَ مِنْ ذِمَّةِ اللهِ وذِمَّةِ رَسُولِه** »[7]

والعجيب بعد ذلك ، أن يستمرّ كثيرٌ من العلماء -بمفهوم الاصطلاح المتعارَف عليه- ومن العامّة ، بحكم الفساد النابع من (العلماء والأمراء) ، على إغفال حقيقة واجب الانتصار من الظلم أو التغافل عنها ، وإغفال حقيقـــة أنـــه يسري بالذات في وقت الظلم ، وإلاّ فما معناه ؟ .. وكأنما يريد هؤلاء لعامّة المسلمين أن يعيشوا حتى تحين آجـــالهم المحتومة .. في دوامةٍ أو حلقةٍ مفرغَةٍ لا مخرجَ منها :

- الحكم الإسلاميّ كما يريد الله عزَّ وجلَّ .. لا وجود له[8]
- الحاكمون مسلمون .. لمجرّد قولهم لا إله إلا الله

- لا يجوز إذن القيام عليهم .. بقولٍ أو فعل
- إذا قصّر العلماء .. فلا حرج على العامّة
- ومن أراد الإنكار .. فليكتف بالإنكار في قلبه
- ولتستمر الأوضاع على حالها .. أو لتزدْ سوءا

ويأبى الله عزَّ وجلَّ أن تستمر هذه الأوضاع على حالها الرهيبة ، وهو الذي يبيّن لنا المخرج من هـــذه الدوّامـــة المصطنعة وتلك الحلقة المفرغة المقصودة ، فيقول تعالى في الآيات المنـــزلة في مكة المكرمة على طريق الإعداد لإقامـــة حكم الله في الأرض والخلق :

﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ** ﴾[9]

﴿ **وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ** ﴾[10]

﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[11]

ولا نغالي إذا قلنا ، إن جلّ ما نزل من القصص القرآني في العهد المكي خاصة ، كان فيه التعلـــيم للمـــسلمين أن يواجهوا الظلم والظالمين بكلمة الحق ، والجهاد الحق ، إلى أن يقوم حكم الله الحق .. ثم تجب حمايته باستمرار الجهـــر بالحق وبغير ذلك من الوسائل

ومن أراد أن ينير الله قلبه فليقرأ سورة (هود) ولْيستخلصِ الدروس منها .. حتى يطبّقها

أو ليرجع –كأمثلةٍ قليلة– إلى قصة رجلٍ ذكره الله تعالى في سورة (يس) ، وآخرَ ذكره تعالى في سورة (غافر) ، ولم يذكر اسميّهما ، وما كانا –حسب السياق القرآني من العلماء ولا الأنبياء– فلْينظرِ القارئ كيف يجب الجهر بالحق في وجه الظلم والظالمين :

﴿ **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ** ﴾ إلى آخر الآيات .. [12]

﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ** ... ﴾[13]

وهذا الطريق هو الطريق الذي يجب سلوكه في أداء الواجب الكفائي العظيم ..

أما أن نعلق أداء الواجب بقيام حكمٍ إسلامي وطيد الأركان ، فذاك ما يريد أن يسوقنا إليه سوقاً مَنْ يخشون قيام حكمٍ إسلامي وطيد الأركان ، بل ويحاربون ذلك سراً وعلنا

لقد أرشد الله عزَّ وجلَّ إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند التمكين في الأرض فقال :

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾(14)

ولكنه أرشد أيضاً إلى أداء هذا الواجب قبل قيام الحكم الإسلاميّ والتمكين في الأرض ، وجعله جزءاً من تكوين الجماعة الإسلاميّة القادرة على النهوض بأعباء الدعوة فنقرأ في الآيات المنـــزّلة في العهد المكي أيضاً من وصية لقمان لابنه ، تعليماً للعصبة الأولى ولنا من بعدها .. فرداً فرداً ، بل وتعليماً لها ولنا كيف يجب تنشئة الأجيال التالية علـــى أداء هذا الواجب .. فرداً فرداً ، يقول الله تعالى في وصية لقمان لابنه :

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾(15)

ويوم نتعلم من القرآن العظيم كيف نمارس هذا الواجب في واقع حياتنا في مواجهة الظلم والظالمين ، بكلمة الحق والجهاد الحق .. كجزء من تكوين أنفسنا على الإسلام ، وكيف نربّي أبناءنا على الإسلام وعلى ممارسة هذا الواجب من الواجبات الإسلاميّة كسواه لمواجهة الظلم والظالمين بكلمة الحق والجهاد الحق .. يومذاك نكون فعلاً في طليعـــة الطريق التي سار عليها رسول الله ﷺ وصحبه الكرام لإقامة الحياة الإسلاميّة والحكم الإسلاميّ كما يريد الله عزَّ وجلّ .. ونكون –إن أخلصْنا النيّة وصبرنا– ممّن يأذن الله لهم بالنصر .. أو ينعم عليهم بالشهادة .

---

(1) [المائدة : 50] .
(2) رواه أبو نعيم في الحلية .
(3) [آل عمران : 4] .
(4) رواه مسلم .
(5) في رواية للطبري وابن الأثير عن الحسين بن علي رضي الله عنه .
(6) رواه أحمد والنسائي والترمذي .
(7) رواه الطبراني والأصبهاني .

(8) ونأمل أن يتحقق الهدف المعلن في إيران ويستقر حكم إسلامي وتستقر الحياة الإسلاميّة على أسس وطيدة .

(9) [الشورى : 39] .

(10) [الشورى : 41] .

(11) [العنكبوت : 69] .

(12) [يس : 20-32] .

(13) [غافر : 28-52] .

(14) [الحج : 41] .

(15) [لقمان : 17] .